

٣ - آلاء الرحمن في تفسير القرآن

تأليف محمد جواد البلاغى النجفى

الجزء الأول - مطبعة العرفان بصيدا - سنة ١٣٥٢

كان القرآن الكريم ولا يزال مادة البلاغة العربية بل مادة العقل العربي بل مادة الحياة الإنسانية العالية بآدابها وعلمها وفقهها وأحكامها ودولتها . نزل به الوحي على محمد ﷺ فجمع الأمة بعد شتاتها وافتراقها على كلمة واحدة في قلب رجل واحد أينما سارت سجدت لها العروش ودانت لها الملوك وخضعت لها الرقاب واستقبلتها القلوب وانقادت لها النفوس وعلا بها الحق وأضاء بها الوجود حتى إذا تمت لها المعجزة في إخضاع العالم للحق وإخراجه من ظلمات الباطل إلى نهار الحق بدأت طبيعة الحياة تفعل فعلها وتفتن تفتنها فمدت الشبهات أعناقها ، وظهر الخلاف بين الناس إلا أن الشبهات كانت لأول عهدها خفية قليلة وكان الخلاف ضعيفا متقاربا ثم بدأ الجدل واللجاج والعتاد الإنسانى البغيض حتى استحكمت الشبهة وكثر الخلاف واتسع مابين أصحاب الرأيين وتعصب هذا وتنطع ذاك فخرجت الفرق المتعادية والنحل المتخاصمة وبقي كل فريق يطلب النصر لرأيه لا للحق وبذلك اضطرب الحبل وفسدت الأمور واستحل القتال وضعفت الدولة . وهذه صورة يتكرر ظهورها فى التاريخ . ومن يتتبع أحوال الفرق وأسباب نشأتها وأطوار نموها وضعفها يعلم أن الخلاف أو الشبهة التى يُبنى عليها المذهب ليست إلا كبوة عقلي واحد في رجل من أصحاب الرأي انساق فى آثارها وجر وراءه أمة من الناس تعصبوا ، فأكبوا معه . ولا بأس أن ننقل هنا كلمة للجاحظ عن إبراهيم النظام رأس الفرقة المشهورة من المعتزلة بالنظامية . قال فى كتابه الحيوان ج ٢ ص ٨٣ « وكان إبراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ فى باب الصدق والكذب ... وإنما كان عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والباطل والسابق الذى لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاص ، ولكنه كان

يظنُّ الظنَّ ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره ظنًّا ، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ، ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت « اه . وهذه صفة رؤوس الفرق جميعًا في كل ملة وفي كل علم .

قدمنا هذه الكلمة بين يدي هذا الكتاب ، لأن مؤلفه من علماء الإمامية ، وهم فرقة من أهل الإسلام افرقت فيما بعد إلى فرق كثيرة وأصل عقيدتها إمامة علي رضي الله عنه وبقاؤها في عقبه ، وللكلام على الإمامية وتفصيل مذهبها ذيول طويلة ليس هذا موضع ذكرها والذي يهمنا أن هذه الفرقة كان لها في الإسلام شأن عظيم وألف في الرد على مذاهب أهلها من الكتب شيء كثير . وقد قرأنا عنها مذاهب عجيبة لا يقرها عقل . ولم يصل إلى أيدينا من كتبهم إلا ما قرأناه من النصوص المنقولة عن كتبهم في الرد عليهم فسرتني كثيرًا أن أرى بين يدي تفسيرًا لعالم من علماء هذه الفرقة ، وإن أجد هذا التفسير قد قرب مسافة الخلف بين ما قرأته عن الإمامية وبين عقيدتي وعقيدة أكثر المسلمين . وهنا لانجد بدءًا من الإشارة إلى أن أهل الفرق والمذاهب لا يزالون في غفلة عن الحياة . فهم يتقسمون أمرهم بينهم والعدو من ورائهم وأمامهم وعن أيانهم وعن شمائلهم يعد العدة ويتوثب للفريسة الغافلة ولا مخرج للعرب بعد اليوم إلا أن يرجعوا إلى حكم الله إذ يقول ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا فَنفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ . ولا بد أيضًا من أن يرجعوا إلى كتابهم وسنة رسولهم مخلصين لا يؤولون ولا يحرفون الكلم من بعد مواضعه وأن يتركوا وراءهم ظهرًا أقوال رؤوس الفرق وأئمتها فإنهم أصل البلاء ومادة الشر ، ولا حياة لأمة على الأمر الذي لا يحوى الخلاف فيه إلا الفرقة والخصومة والشنآن (١) والعداوة المتوارثة ونسأل الله أن يجعل آخر أمر المسلمين والناس جميعًا كأوله ألفةً وارتباطًا وصفاءً وعملاً خالصًا لله لا للشهوات والأهواء .

* * *

(١) الشنآن : البغض .